هـــود عليه السلام

أقامت عاد[١] بالأحقاف[٢] ما بين اليمن وعُمَان؛ رَدَحاً من الزمن في بُلَهْنِيَة[٣] من العيش؛ ورَغَدٍ من الحياة؛ حباهم الله نعَماً وافرة؛ وخيراتٍ جليلة؛ ففَجَّروا العيونَ، وزرعوا الأرض، وأنشئوا البساتين، وشادوا القصور، ومنَحَهم فوق ذلك بَسْطةً في أجسامهم، وقوة في أبدانهم، وآتاهم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين.

ولكنهم لم يُفكِّروا في مبدأ هذا الخلق، ولم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم، وغايةُ ما وصلت إليه عقولُهم، وارتاحت إليه طباعُهم، أن اتّخذوا أصناماً لهم آلهة يَعْنون[٤] لها بجباههم، ويُعفِّرون في ثرَاها خُدودهم، ويتوجّهون إليها بالشكر كلّما وقعوا على خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضير[٥].

ثم إنهم بعد ذلك عثوْا[٦] في الأرض، فأذلَّ القويُّ منهم الضعيف، وبطش الكبيرُ بالصغير، فأراد الله ـ هدايةً للأقوياء، وتمكيناً للضعفاء، وتهذيباً للنفوس ممّا ران[٧] عليها من الجهل؛ ورفعاً للحُجُب التي تراكمت على بصائرهم ـ أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، يحدِّثُهم بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويُرْشِدهم إلى خالقهم؛ ويبيِّن لهم سفاهةَ عبادتهم؛ رحمةً منه وكرماً.

وكان هودٌ رجل من أوْسطِهم[٨] نسباً، وأكرمهم خُلْقاً، وأرجحِهم حِلماً، وأرحبهم

---

(١) عاد الأولى هم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا شديدي البأس والقوة.
(٢) الأحقاف: واد بين عُمان وأرض مهرة وقيل بين عمان وحضرموت.
(٣) البُلَهْنِيَة: الرخاء وسعة العيش.
(٤) عنا يعنو: خضع وذل.
(٥) ضاره ضيراً: أي أضره ضرر.
(٦) عاث: أفسد.
(٧) ران: غطى.
(٨) هو من أوسط قومه: من خيارهم.

صَدراً؛ فاختاره الله ليكونَ أمينَ رسالته، وصاحبَ دعوته، لعله يهدي هذه العقول الضالة، ويُقوّم من هذه النفوس المعوجّة. فصدَّع[١] بالأمر، واضطلع[٢] بالرسالة، وادّرَع[٣] بما يَدَّرِع به صاحبُ كلِّ دعوة؛ عَزْمٌ يُقلقل[٤] الأجْبال، وحِلم يهزِمُ الجهّال، وخرج عليهم مُنكِراً أصنامهم، ومسفِّهاً[٥] عبادتهم.

قال: يا قوم، ما هذه الأحجار التي تنحتونها ثم تعبدونها وتلجئون إليها! ما خطَرها وما غَناؤها[٦]، وما ضررها وما نفعها؟ إنها لا تجلب لكم نفعاً، ولا تدفع عنكم شرًّا؛ إن هذا إلاّ ازدراءٌ لعقولكم، وامتهان لكرامتكم؛ ولكنّ هناك إلٰهاً واحداً حقيقاً بأن تعبدوه، وربٌّ جَدِيراً بأنْ تتوجّهوا إليه، هو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي أحياكم، وهو الذي يُميتكم، مكَّن لكم في الأرض، وأنبت الزّرعَ، وبسَط لكم في الأجسام، وباركَ لكم في الأنعام؛ فآمنوا به، واحذروا أن تعمَوْا عن الحقّ، أو تكابِرُوا[٧] في الله، فيصيبَكم ما أصاب قومَ نوح، وما عَهْدُهم منكم ببعيد.

قال ذلك هود، وهو يرجُوا أنْ تَصِلَ كلماتُه إلى أعماق نفوسهم فيؤمنوا، أو تنفُذَ إلى عقولهم فيفكّروا ويهتدوا، ولكنه رأى وجوهاً ساهمة[٨] وعيوناً حائرة؛ أن سمعوا كلاماً لم يكونوا قَبْل قد سمعوه، وأُلقي إليهم قول لم يألَفُوه. قالوا: ما هذا الذي تَهذِي به وتخوضُ فيه؟ وكيف تريد أن نعبد الله وحده من غير شركاء؟ إننا نعبد هذه الأصنام لتقرِّبنا إليه، وتشفَعَ لنا عنده.

قال: يا قوم، إنما الله واحدٌ لا شريكَ له، وعبادته وحدَه هي جوهر العبادة ومُصاصها[٩]، ومُخُّها ولُبابُها، وهو قريبٌ غير بعيد، أقرب إليكم من حَبْل الوريد، أما هذه

---

(١) صَدَع بالأمر: جهر به وبيَّنه.
(٢) اضطلع بالأمر: نهض به.
(٣) ادَّرع الرجل: لبس الدرع والمقصود تأهب واحتمى.
(٤) قلقل الشيء: حركه.
(٥) سَفَّه فلاناً: نسبه إلى السفه.
(٦) الغناء: النفع والكفاية.
(٧) كابر في الحق: عاند فيه.
(٨) سَهَم سهوماً: تغير لونه عن حاله لعارض من هم أو هزال.
(٩) المُصاص: خالص كل شيء، يقال: فلان مصاص قومه إذا كان أخلصهم نسباً.

الأصنام التي تعبدونها زُلْفى[١] إليه وشفاعةً عنده فهي تبعدكم عنه من حيث ظننتم أنكم إليه تقربونَ، وتَـدُلُّ على جهلكم في الوقت الذي تظنُون أنكم تعلمون وتفهمون.

فأعرضوا وقالوا: ما أنت إلا سفيهٌ طائش الحِلْم، تسفِّه عبادتنا، وتعيب ما وجدْنا عليه آباءنا، ما أنتَ مِنْ بيننا؟ وما ميزتك عن واحد منا؟ أنت تأكل كما نأكل، وتشرب كما نشرب، وتجري في حياتك على أسلوبٍ كالذي نجري عليه، فلِمَ اختصَّك الله بالرسالة، وآثَرك بالدعوة؟ ما نظنّ إلا أنّك من الكاذبين.

قال هود: يا قوم؛ ليس بي سفاهة عقل ولا حماقة رأي، ولقد عشتُ فيكم دهراً طويلاً فما أنكرتم عليَّ شيئاً، وما جرّبتم عليّ حُمْقاً ولا طيشاً؛ وما الغريب في أن يختصَّ الله واحداً من قومه برسالته ويحمِّله دعوته! إنّما الغريب أن يتركَ الناس سُدًى من غير رسول، وفـوْضَى لا وازعَ[٢] لهم ولا رادع، على أني لست بيائس من إيمانكم، ولا ضائقِ الصدر بسفهائكم؟ ففكِّروا بعقولكم، وانفُذوا إلى الحقائق ببصائِركم، تروا أن الله واحدٌ في كل شيء. في هذا النظام العجيب، والخلْق الغريب، والفَلَك الدائر، والنجم الثاقب[٣].

وفـــي كـــلِّ شـــيء لـــه آيـــةٌ تـــدل علـــى أنـــه الـــواحـــدُ

فآمِنوا به واستغفروه يرسل السماء عليكم مدرَاراً[٤]، ويُمدِدكم بأموال فوق أموالكم، ويزِدْكم قوةً إلى قوتكم، ولا تتولّوا مجرمين.

واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تُبعثون؛ مَن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، فتدَبَّروا لأنفسكم، وخذُوا الأهبَة لآخرتِكم، وقد أبلغتُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، وإني لكم به نذيرٌ مُبين.

قالوا: لا شكّ أن واحداً من آلهتنا قد مسَّك بسوء فخُولطت[٥] في عقلك، ودُخِل

---

(١) الزلفى: القربى والمنزلة.

(٢) الوازع في الحرب: الموكل بالصفوف يتقدم الصف فيصلحه ويُقدم ويُؤخر. وهو واحد الوَزَعة: وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالى.

(٣) الثاقب: المضيء لثقبه الظلام بضوئه.

(٤) المدرار: الكثير الدّر وسحاب مدرار كثير السَّحّ.

(٥) خُولط في عقله: اضطرب عقله.

عليك في تفكيرك؛ فأصبحتَ تهذِي بكلماتٍ لا حقيقةَ لها إلا في خَلَدك[١]، ولا ظلّ لها إلا في تفكيرك، وإلاّ فما الاستغفار الذي يرسلُ الله بعدَه السماء، ويمدّ بالمال، ويزيد في القوّة؟ وما يومُ البعث الذي تزعم أنّنا نعود فيه بعد أن نُصبِح عظاماً نَخِرَةً[٢]، وجُثَثاً بالية؟ هيهات هيهات[٣] لما تَعِد وتزعُم! وما هي إلا حياتنا الدنيا، نموتُ ونحيا وما يهلكُنا إلاّ الدهر!

ثم ما العذاب تَعِدُنا وتتوقّع أن نلقاه؟ إننا لن نذعِنَ لما تقول، ولن نرجعَ عن عبادة آلهتنا، فأْتِنَا بما تَعِدنا إن كنْتَ من الصادقين.

فلما تبيَّن له العنادُ في أحاديثهم، والإصرارُ في ثنايا أقوالهم، قال لهم: إني أُشهد الله أنني قد بلَّغت وما قصَّرت؛ وجاهدتُ وما أحجمت؛ وسوف أستمرّ على هذا البلاغ وذاك الجهاد، ولا أُبالي جَمْعكم، ولا أخاف بطشَكم، فكيدوني كيداً، أو أجمعوا بي بَطشاً، إنيّ توكّلت على الله ربّي وربِّكم، ما من دابّة إلا وهو آخِذٌ بناصِيَتِها[٤]؛ إن ربّي على صِرَاط مستقيم.

وظلَّ يدعو والقومُ مُعْرِضون وفيما هم على هذه الحال شامُوا[٥] سحاباً أسوَد يعترض السماء، فاستشرف[٦] القوم إليه، وخفُّوا إلى رؤيته سِراعاً، وقالوا: هذا سحاب عارضٌ سيُمطرنا، ثم تهيّئُوا لاستقباله، وأعدّوا حقولَهم لنزوله. ولكن هوداً قال لهم: ليس هذا سحابُ رحمة، وإنما هو ريح نقْمة، هو ما استعجلتم به، ريحٌ فيها عذاب أليم!

وما رَاعَهم[٧] إلا أن رأوا رِحالهم ودوابَّهم التي في الصحراء، تحملها الرياح على أجنحتها القوية، وتقذفُ بها إلى مكان بعيد! فداخلهم الفَزَعُ، وأدركهم الهلَع[٨]، وهُرِعوا

(١) الخَلَد: البال والنَّفْس.
(٢) نَخِرَ: بلي وتفتت.
(٣) هيهات: اسم فعل معناه البُعد.
(٤) الناصية: مقدم الرأس.
(٥) شام السحاب: نظر إليه يتحقق أين يكون مطره.
(٦) استشرف للشيء: تعرض.
(٧) راع: فزع.
(٨) الهلع: الجزع الشديد.

سِرَاعاً إلى بيوتِهم يُغلقونها عليهم ظنًّا أنهم بذلك يَنْجُون؛ ولكن البلاء كان عاماً، والخَطْب شاملاً؛ إذ حملت الريحُ رمالَ الصحراء، وظلّت سبْعَ ليال وثمانية أيام متتاليات، أصبح القوم بعدها صرعَى كأنهمُ أعجاز[١] نَخلٍ خاوية، وعَفَا[٢] ظلُّهم، ودَرس[٣] رَسْمُهم، وامَّحى من التاريخ أمرهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٤].

أما هود فقد آوى إليه صَحْبُه، ومن آمن به، وظلوا بمكانهم، تهزِم[٥] حولهم الرياح، وتَسْفي[٦] الرمال، وهم آمنون مطمئنون، حتى هدأت الريح، وصفا الحال. ثم انتقل إلى حضرموت؛ وقضى بعد البقية الباقية من عمره.

---

(١) أعجاز النخل: أصولها.
(٢) عفا: زال.
(٣) دَرَس: ذهب الأثر.
(٤) سورة: هود، الآية: ١١٧.
(٥) هَزَم الشيء: صَوَّت.
(٦) سفت الريح التراب: ذرته أو حملته.

obeikandl.com